إلاّ ابن هَرْمَةَ وسَلْماً الخاسر، وكلاهما شاعر مُجيد أيضاً إلاّ أنّ أبياتهما لم تصل إلىّ ، فلم أعلّق أخبارَهما فى هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة فى مُنْتَصَفِ ذى الحِجَّة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئولُ فى توفيقنا إلى السَّداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

الرسالة الرابعة

جلوس المهدىّ على دست الخلافة

أفتتحُ هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدىّ على دَسْت الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبى جعفرْ ، وقد كان لذلك يوم عظيم فى الحضرة والأسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يَرَوْنَ زوال الخلافة عن وَلَدِ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذرَ مصيرها إلى المهدىّ ، والمشايخُ من أهل هاشم حاضرون ، فجرَى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علِمتها من البرامكة سراً لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنّه لمّا أودَى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موتَه إلى الصباح عمن كان معه فى الحج ، واستدعى عيسى بنَ علىّ عمّه وعيسى بنَ موسى ولىَّ العهد بعد المهدىّ وجماعةً من القوّاد والأمراء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعُم — أنْ يجددوا البَيْعَةَ لابنه من غير أن يُعْلِمَهم بوفاته ، فلم يتجرّأ أحد على مخالفة الأمر ، ظنّاً منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علِموا بوفاته

ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مرادَه ولم يبق له غرضٌ من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمراً مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوقَ الجَيْب باكياً ينْعَى وفاته ، فلم يكن فيهم إلاّ من أُخِذَتْ عليه البيعة ، وركب رجال المهدىّ إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها ،[1] فصارت الخلافة إلى المهدى بهذه الحيلة التى تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإنْ كان فيها حَقْنٌ لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبى جعفر فى بئر ميمون مع السَّحَر ، لست خَلَوْن من ذى الحِجَّة ، وهو مُحْرِمٌ بظاهر مكة ،[2] ولذلك دفن مكشوفَ الرأس دون أحد غيره من الخلفاء ، لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لُبْس القُمُص والعمائم والبرانس[3] وغير ذلك من أنواع المَخيط ، وحفرَ له أهله مائة حُفْرةٍ بين الحَجُون وبئر مَيْمُون ،[4] ليُعَمُّوا على الناس ، ثم دفنوه فى غيرها . ووجه الربيع منارَةَ[5] الخادمَ إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفاً من أمر يحدث فى الإسلام ، فجاءها فى أَحَدَ عَشَرَ يوماً[6] من مكة .

وقد كنت فى مجلس هرونَ الرشيدِ حين سمعتُ الجَلَبَة فى مقاصير الحَرَم ، فاستعلمت الخبرَ ، فَنُبِّئْتُ أنّ أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهَدَ مجلسهم فى ذلك الوقت ، فأخبرنى نافذٌ أحد الحُجّاب أن المهدىّ قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيتُ أستاذى أبا يوسف ، فأبنتُ له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إلىّ بالبقاء

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣ (٢) ابن الأثير ٦ : ٨ (٣) الزرقانى ٢ : ١٤٨
(٤) الخميس والعقد الفريد ٣ : ٥٣ (٥) المسعودى ٢ : ١٩٤
(٦) أبو الفداء ٢ : ٩

معه إلى قُبَيْلِ الظهر ، وهو الوقت الذى يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدىّ .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحاتِ غاصّةً بجماهير الناس ، فوَلَجْنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء ، فجاوزنا الحُجّابَ إلى المجلس الذى تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جَمع الأمراء من بنى العباس وجِلّةَ القُوّاد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل المُهَلَّب وآل طاهر وآل قَحْطَبَةَ وآل نُوبَخْتَ وغيرهم . وكان المهدىّ مستوياً على عرش مَكلَّل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قُبَّة تتدلى منها أستار من الديباج ،[1] وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفا بمِظَلَّتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوّين بعروق من الذهب ، قد نُزِّلَ فيها الياقوت والزَّبَرْجَدُ والفَيْرُوزُ ، ودونهما بنو هاشم على وسائدَ قد ثُنِيَتْ لهم ،[2] ولباسُهم خَزٌّ أسودُ ، وكذلك كان لباسُ المهدىّ ، وكانت عليه الطَّرْحَةُ ، وعلى كتفه بُرْدَةُ النبى صلى الله عليه وسلم التى استصحبها أبوجعفر إلى الحج ، وفى يده القضيب وفى الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبرٌ مزخرف بأنواع الزينة والجوهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدى فى خلافة أبيه[3] أبو عبد الله معاويةُ بنُ عبد الله الأشعرى ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيراً[4] له فى سياسة الملك . وكان سَلامان الأبرشُ حاجبُهُ واقفاً على بعض مِرْقاة[5] هذا

---

(١) المسعودى ١ : ٢٣٤ (٢) الأغانى ٤ : ٩٣ (٣) الفخرى ٢١٥
(٤) الأغانى ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودى ٢ : ١٩٦ (٥) السيوطى

المنبر بالبيعة التى جاء بها منارةُ من مكة ، وتحت يد الخليفة أميرٌ من البرامكة ،[١] قد أخذ فى يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يَرَوْا إلاّ متابعةَ الناس ، بعد أن بايعت مكةُ والمدينةُ وبايع القُوّاد والوزراء وأكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس فى مثل هذا الموقف أن يَبْدَءوا الخليفة بتعزيته فى أبيه ، ثم يُهنِّئوه بجلوسه على تخت الخلافة ، فلما أخذوا فى تعزية المهدىّ خلعوا قلانِسَهم ونبذوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يُعَزَّوْنَ بالعمائم ،[٢] ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، ولفظُ البيعة قولُه[٣] « إنّا نبايع سيدَنا ومولانا الأمامَ المُفْتَرَضَ الطاعةِ على جميع الأنام أبا عبد الله محمدَ بنَ عبدِ الله المنصور ، على كتاب الله وسُنَّة نبيه واجتهادِ أمير المؤمنين ، وأنْ لا خليفةَ سواه ، » ثم بايعه كل من حضر المجلسَ حتى لم يكن يُسْمَعُ إلاّ دعاءٌ له وتنويهٌ باسم بنى العباس .

ثم تناول الوزير منشوراً كتبه الربيع على لسان أبى جعفر استنهاضاً للناس إلى مبايعة المهدىّ ،[٤] فتلاه على مَسْمَعٍ من الأمراء وفيه يقول . « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خَلَف من بنى هاشم وشيعتِه فى خُراسان وعامّةِ المسلمين . أمّا بعدُ فإنى كتبت هذا وأنا حىٌّ فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألاّ يفتنكم بعدى ، ولا يَلْبِسَكم شِيَعاً ، ولا يُذِيقَ بعضَكم بأسَ بعض وأوصيكم بمحمدٍ ولىِّ عهدكم وأذكِّرُكم البيعة له ،

---

(١) يفهم من ابن الاثير ٦ : ٦ أن خالداً ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفى المنصور (٢) الأغانى ٩ : ٩٧ (٣) السيوطى (٤) ابن الاثير ٦ : ١٢

وأستنهضكم للوفاء بعهـده واجتماع كلمتكم عليه ، فانّما قوّتكم تكون بالاجتماع الى رأيه ، وقد أوصيته بكم و بالرأفة عليكم والاحسان إلى المسلمين والسلام . » فترقرق الدمعُ فى عَيْنَىِ المهدىّ[1] ولم يتمكن من إطالة الخطبة التى يقولها الخلفاء ، لِمَا غلب عليه من تأثير النفس ، فصرّف الأمراء وهم يدعُون له بالسلامة .

سياسة المهدىّ وخلعه عيسى ابنَ عمه عن الولاية

ولما كان المَسَاءُ أقيمت فى المدينة زينةٌ حافلةٌ فَصَرَفْتُ العنايةَ إلى تزيين مَشْرَع الزوايا[2] بالأنوار، لقربه من موضعى، ليكون فى ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولانى من الجميل، ودفعٌ لألسنة الوُشاة عن السعاية بى إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت، وامتلأت الزَّوْرَاءُ فى تلك الأيام بأربابِ الملاهى ، وبما يعرضون من صور الطين التى يصنعونها لِلعِبِ الصبيان فى المواسم والأعياد[3] ولا أطيلُ لك الكلام على عاداتِ العامة وسذاجتهم ، لأنها فى جميع الأمم عامةٌ ومتماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفته للمهدىّ — أصلحه الله — من حسن السيرة التى يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبتَهم له وميلَهم إليه فأقول .

إنه بعد أن أظهر من الأبّهة بافتتاح خلافته ما يعظّم موضعَه من السلطان ، صنع لبنى هاشم وسائرِ قريش طعاماً جاوز فيـــه الحد بسَعَة

---

(١) الاسحاقى ٨٨ (٢) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

(٣) ابن خلكان نقلا عن كتاب احياء علوم الدين للغزالى

النفقة ، [١] حتى إنه أطعم الناس الطير وخبزَ السَّميذ . وكان يحمل معه بِدَر الدراهم والدنانير فى ركوبه ، فلا يتعرض له أحد الاّ أعطاه ، [٢] فكان تخاف أربابُ الدولة نَفادَ ما فى بيت المال [٣] اذا استمر على هذا العطاء ، [٤] ولا سيما بعد أن نقص دَخْلُ الدولة برفعه المُؤَنَ والكسورَ ، وهو الأمر الذى كان يفاوضنى فيه أيامَ خلافة أبيه ، فانّ الناس فى صدر الاسلام كانوا يُؤَدُّون ما فى أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبةٍ على وزن كِسْرَى وقيصر ، لا يفرِّقون فى الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبرىَّ ، الذى هو أربعة دوانيق ، ويُمسكون الوافىَ ، الذى هو مثقال ، فلمّا أُمِّرَ زياد صار يطلب الوافى ، ثم أُمِّرَ الحجاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر الى أبى جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيّره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يُسْقِط الكسور ، فلما وَلِىَ المهدىُّ قال معاذَ اللهِ أن أُلزِمَ الناسَ ظلماً فى ذلك ، فقيل له إن أسقط أميرُ المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة اثنا عشر ألفَ ألفِ درهم ، [٥] فقال علىَّ أن أقرِّر حقاً وأزيل ظلماً ، لأنّ العدل مُوَفِّرٌ للجباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمتُ للمهدىِّ هذه المأثُرَةَ التى أحسَبها له من أجل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فانّ لنا فى سقوط الدول التى قامت فى هذا المكان نفسِه من النَّبَطِ والكَلْدَان وغيرِهم ما يدُلّنا على أن الظلم يقتُل

---

(١) الأغانى ٣ : ٩٤ (٢) المسعودى ٢ : ٤٠١ (٣) المسعودى ٢ : ١٩٦
(٤) الحصرى والخميس ٢ : ٣٣٠ (٥) الماوردى ١٣٧

العبـاد والبلادَ جميعاً ، فانّما كان غرضُ الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيامَ بأعمال الزراعة والمُقَامَ فى بُلْدان الخِصب ، لِمَا يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا فى ظِلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا اذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غَفَلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالبُ التَّرَف ، لم يبق فى نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منها إلاّ تحصيلَ القوت الذى يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعُفَت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مَرَدّ العدوّ بهم ، وقد ماتت نفوسُهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومَنْ عليها .

وكان وفود البُلْدان يَرِدون على المهدىّ من الأقاليم الأسلامية الأقربَ فالأقربَ لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخيرَ لأنهم رأَوْا منه عُدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسناً إليهم ، (١) محباً لهم وساعياً فيما تصلُح به أمورُهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلساً لردّ المظالم ، (٢) ولم يكن قبلَه فى الدولة العباسية من ينظر فى تعدّى الوُلاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال ، (٣) ولقد وجدتُ له فى استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما

---

(١) الخميس ٢ : ٣٣١ (٢) السيوطى وابن الاثير (٣) فى الماوردى ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر فى كتابة الدواوين اذا وقع بها تزوير وفى تظلم المسترزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفى مشارفة الوقوف ورد المغصوب الى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة اضعفهم عن

نفسه، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بمأمن من تغلبهم عليه، ثم جَعْلُ الخلافة من بعده فى وَلَدِه ممنوعةً على غيرهم من بنى العباس. فأمّا أمر العلويين فما كان يشتدّ عليه وقعُه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التى يحتاجون معها إلى زمن يلُمُّون به شَعَثَهم، ويجمعون إليهم أطرافَهم، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم. وأما خلع عيسى ابن عمّه عن ولاية العهد فانّه كان يُتْعِبُ منه البال، وقد دخل عليه يحيى بنُ خالد — أعزه الله — فأصابه فى قَلَق شديد، يقعُد مرةً ويضطجع أخرى. قال لى يحيى فعلمت من ذلك أنّه يريد أمراً عظيما، فقال اجلس قريباً منى، لأنى أريدك للمشُورَة [1] إنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصيّة، وترك الأمر شُورَى بين المسلمين، فما لبثوا أنْ أجمعوا على أبى بكر، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار، لقولهم منا أمير ومنكم أمير، ثم مات أبو بكر وقد صيّر الأمر إلى عمر بمحضَر من الصحابة، فلم ينازعْه فيه أحد، ثم عهِدها عمرُ إلى ستة النفر الذين مات النبى صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فأجمع رأىُ الأمّة على علىّ وعثمان، وكان عبد الرحمن بنُ عوف أحدَ الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان، وفى وصيّة عمر إلى المسلمين أن يتّبعوا رأيه، فبايعوا من أراده، فاستقر عثمان فى خِلافته إلى أن ثارت عليه الفتنةُ لاقصائه ولد أبى بكر وإقباله على أقاربه من

انفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وامضاء ما يعجزون عن امضائه فى البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح.

(١) المسعودى ٢ : ٢١٥

الأمويين بالصلات الطائلة ، وعهدُ المسلمين قريب بضبط[1] أبى بكر وعمر ، فقتلوه وكانت تلك أولَ فتنة فى الاسلام ، [2] ثم أجمع العرب على علىّ عليه السلام ، وكان الفُرْس يميلون معه ، فاستوثق له الأمر فى العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخُراسان ، إلاّ الشامَ لاستواء معاوية فيها ، فلما قتله الخوارج لم يَرَ الحسن ابنُه مقاومةَ الأمويين بالقتال ضنًّا ببذل الدماء فنزل له عن الأمر ، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخافُ اليومَ إنْ صارت إلى ابن عمى أن تذهب من يبتى بلا رجوع ، ثم يكونَ من الفتن ما لا يُؤْمَن غائلتُه على المسلمين ، فأشِرْ علىّ يا أبا الفضل فى هذا الأمر ، الذى لا يتعاظمه أمر ، فانك بحمد الله مباركُ الرأى لطيفُ النظر .

فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إنى أرى الزَّلّة فى هذا الأمر لا تُسْتَدْرَك ، والخطأَ فيه غير مأمون ، فإن تكتُب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكدَ فى البيعة . فقال له المهدىّ كنت أفعل هذا لولا أنى أخاف من عيسى نَكْثَ العهود ، ولكنّى أرَى أن أخلعه عن الولاية وآخُذَ البيعة لموسى على المسلمين ، فقال له يحيى علَى أمير المؤمنين أن يُعْلِمَ شِيعتَه ومَسَانَّ أهله بذلك ، ولم يتعمق فى هذا البحث إلى أبعدَ مما أشار بهِ ، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة ، وأنّه وإنْ كان يأخذ فى تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم فى المشرق ، له فى حبه للعلويين ما يرى به عدولَهم عن العراق الذى تزهَق النفسُ دون التمكن من أهله ، وانما يلتمس لهم من المَغْرِب أمماً ترسخ فيهم دولتهم ، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

---

(١) الفخرى ١١٦ (٢) السيوطى

ولما جمع المهدىّ أكابر الدولة وفاوضهم فى هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم [١] ولكن على أن يُجيبه ابنُ عمه إلى الاتحاد وانتهى بعض مَنْ يَسْتَخْدِم الفقه فى رضا الملوك إلى أن يقول إنّ أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلاّ لتبقى الخلافة فى بيته بعد المهدىّ ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهدىّ إلى الرَّحْبَةِ يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنّه يعتلّ بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلاّ أن يُكْرَهَ بالقتال . فمدَ إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً بألاّ يأخذه بالقتال ، بل يستعملَ الرفق والملاينة فى ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت فى الحروب يقال له أبو هُرَيْرَة محمد ابن فروغ ، فرأى أن يفاجئ الحصن فى آخر الليل ويصفَّ العساكر صفوفاً متعارضة ، ويضربَ وراءهم مصافَ الخيام ليُوهِمَ باستكثار العُدّةِ والعزم على مثابرة الحصار ، ثم يُنْزِلَ بالجنود الزعقةَ العظيمة التى إذا سمعها عيسى وهو فى نومه خامره الجزع وأفزعه الهَوْل ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سَحَراً ورأى سواد الجيش ، فامتلأ قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلاّ بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهدىّ ، فلم يَفْتُرْ عن استعمال الحيلة فى تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن أجابه إلى الانخلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولمّا تصرّف المهدىّ فى أمر البيعة بما أراد ، ثار فى قلوب المخالفين [٢] له ما كان يُخْمِدُه فيهم حلمُه وسَعَة عطائه ، فحصل فى نفسه منهم خوف

(١) ابن الاثير ٦ : ١٦ (٢) ابن الاثير والفخرى والسيوطى

شديد ، ولكنه لم ير مقاومتهم بالقتل ، وفيهم كثيرٌ من أهل السيف ، لئلا يتسعَ الفَتْقُ وتعودَ عليه الفتنة بغير ما يُحبّ ، وإنّما رَجَع إلى من يلوذ به من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب فى الردِّ عليهم ، وأخذ فى استصلاح الزَّوْرَاء والنظرِ فى حسن السيرة الظاهرة من أهلها باكراه العُزَّاب على الزواج ، والاحسانِ إلى المتعففين من الشبان ، ممّا جرى له قِيلٌ وقالٌ بين الناس ، كمثل أنْ نسبوا ذلك منه إلى غيرة به على النساء ،[1] وهم قد غَفَلوا عن الغاية التى يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الاسلام حتى يعظُم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهدىّ بمناصرة العلم

إنّى وإن لم أكن على غرض العباسيين فى السياسة ولا تطيب نفسى بما ينفردون به من الملك (لأنى إلى قوم سواهم لأميل) لَأُوَفِّى المهدىَّ حقه من الثناء على ماله من جميل العناية [2] فى تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياماً [3] معلومة من السنة ، يَعْرِضون فيها بضاعتهم من علم أو فنّ أو أدب أو صناعة حتى يحصُلَ بينهم التنافس ، ويُصْدِروا ما عندهم من النفائس ، ثم يَجزيهم على ذلك بما هو مطبوعٌ عليه من الكرم .

ولقد رأيته أصلحه الله أعطَى الخلفاءَ نوالاً للشعراء ، وهو يأذَن لهم بالدخول عليه مرَّةً فى السنة [4] فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من

---

(١) فى الاغانى ٣ : ٤١ ان المهدى من أشد الناس غيرة (٢) الاسحاق ٨٨
(٣) المستطرف ١ : ٣٧ (٤) الاغانى ٩ : ٤٤

محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأولِ ما وَلِيَ الخلافةَ ، وقد قصده ابن المَوْلَى من البادية ،(١) وسَلْمٌ الخاسر من البَصْرة ، وابنُ الخياط من مكة ، وأشجعُ السُّلَمِيُّ(٢) من الحجاز ، فقالوا فيه الشعر الذى لم يُمْدَح بمثله أحدٌ من الملوك . ومن جملة ما حفِظتُ لأبى العتاهية فى تهنئته إياه بالخلافة قوله .

أتتـه الخـلافة منقـادةً إليـه تُجَـرِّرُ أذيالهـا
فـلم تَكُ تصلُحُ إلاّ له ولم يك يصلُح إلاّ لها
ولو رامهـا أحـدٌ غـيرُه لزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالهـا
وإنَّ الخليفةَ من بُغْضِ «لا» إليـه لَيُبْغِضُ مَنْ قالهـا

فأصاب لذلك حظاً وافراً من المال . وكان بشّار المقدمُ ذِكرُه فى الرسالة السالفة واقفاً فى صفوف الشعراء فلم يتمالك أنْ يقولَ لمن حَوْلَه وَيْحَكُمْ انظروا هل طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهدىّ يقدم عليهم سَلْماً البَصْرِىّ ومَرْوان بنَ أبى حَفْصَةَ ويُعطيهما عطيةً واحدة ، فأما مروان فانه يلتمس الفصاحة فى كلامه تشبهاً بأكابر الشعراء ،(٣) وأما سَلْم فانه يودع أبياته المجونَ والخلاعةَ لتكون أُنْساً فى عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بَوْنٌ يشبه أن يكون ناشئاً عما فيهما من تباين المَشْرَب بين الافراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فإنّ مروان بخيل يَضِنُّ بماله ،(٤) وسَلْم سَمْحٌ ببذُل المال ، يأتى إلى دار المهدى على بِرْذَوْنٍ قيمتُه عشرةُ آلافِ

---

(١) الاغانى ٣ : ٨٨ (٢) ابن خلكان ١ : ١٠١ (٣) الاغانى ٩ : ٤١
(٤) الاغانى ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

درهم ، ولباسُه الخَزُّ والوَشْى ، (١) ويأتى مروان بأثواب رَثَّةٍ على حمار يكتريه بدرهم لا يخرج من يده إلاّ بعَصَبِ الريق ، مع كثرة ما أصابه من المال (٢) فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار فى عطية واحدة كما علمتُ .

ولئن تكن الفصاحة فى كلام مروان أجلَّ منها فى شعر سَلْم إنِّى لأَعِيبُ عليه المداهنة التى يلتمس بها مرضاةَ الخليفة بقدحه فى أهل البيت على غير حكمةٍ وعقل ، كأنّه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله فى ثبوت الخلافة للعباسيين و بُعد العلويين عن وراثة النبى صلى الله عليه وسلم .

يا ابن الذى ورث النبىَّ محمدا   دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنّى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثةُ الأعمام (٣)

وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هى مصلحة دينية لا وراثةٌ دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم صرَّح بأن الحسن والحسين هما ذُرِّيته فاذا وجدت الذرية لم يبق مَدْخَل للاعمام فى الوراثة ، اللهم إلاّ إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التى نُسِخَت بمجىء الاسلام ، ولو أنّا ضربنا عن ذلك كله صفحاً ما وجدنا أصلحَ للاسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحدٌ من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا مِنْ ذِكرها الآن فى شىء ، وإنما أعود الى الحديث الذى جرى به القلم عن سيرة المهدىّ ، فأنّى شهِدتُ بداره أيامَ الشعراء وأيامَ القُصَّاص وأيامَ النُّدماء وأيام المغنّين وأيام

---

(١) الاغانى ٩ : ٣٩   (٢) ابن خلكان ٢ : ١٢١
(٣) الاغانى ١٢ : ١٠ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودى

الرماة[1] وأيام جَرْىِ الخيل، وقد سبقه إليها الخلفاء، إلاّ يوم السِّباق فانى لاأعلم عن أحد من بنى العباس أنّه أقام الحَلْبَةَ وأجرى بين يديه الخيل فى محفِلٍ من كبراء الدولة قبله. وكان له فرس سَبّاقُ الأضاميم، يقال له الغضبان،[2] فكان أولَ خيل الحَلْبَة فى ذلك اليوم، فلما وَصَفَه الشعراء أصاب جائزتهم العُمانىّ وقد ارتجز.

قد غضِبَ الغضبانُ إذجدّ الغضبْ — وجاء يحمِى حَسَبًا فوق الحسب

من إرث عباسِ بنِ عبد المُطَّلِب — وجاءت الخيلُ به تشكو التعب

له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التى تكفى المشاهدة لها مرة واحدة، وأما الذى ترتاح إليه النفس، على التماس الكثير منه فى دور الخلفاء، فهو يوم الغِناء وكان المهدىّ إذا اتخذ له مجلسًا بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها فى صفوفهم بحيث لا يَرَوْنَه[3] الأُفَيْلِحَ بنَ أبى العَوْراء، وهو أوضحُ الناس غِناء وأعرفهم بالألحان والأصوات،[4] وإنْ هو لم يكن أحسنهم صوتًا، فانما يَحْسُن الغناء عند من يُشْبِع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدِل الأوزان ويُفَخِّم الألفاظ، ويعرِف الصواب، ويقيم الاعراب، ويستوفى النَّغَم الطِّوال، ويحسن مقاطيع النغم القِصار، ويصيب أجناس الإيقاع،[6] فهو يُحسن ذلك كله لمحله الجليل من هذه الصناعة، وليس له فيها شريك إلاّ مغنّ آخر يقال له عطرد[6] قد أدرك دولة الأُمويين فى آخر مدتهم،

---

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧ (٢) الأغانى ١٧ : ٨٢ (٣) الأغانى ٤ : ٩٩ وذكر المسعودى ١ : ١١٨ أن الأوائل من بنى العباس ما كانوا يظهرون للندماء (٤) الأغانى ٤ : ٨٨ (٥) الأغانى ١ : ١٢٦ (٦) الأغانى ٤ : ٩٩

وأما مَنْ سواهما من المغنين فليس لهم فى الصناعة ما للمتقدمين من الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأنّ الزمن الذى مضى عليهم فى صدر الدولة كان مضرجاً بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر فى مطالب اللهو والترف إلى التماس الأسباب التى يؤيّدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة . ثم إنّ نقل الغناء إلى العربية[١] ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه ، لأنهم نقلوه من الفارسية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وهو الزمن الذى أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترَف الملك ، فلقد نقَلت إلينا الأخبارُ السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهّة الملك ، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم من الدنيا ،[٢] وإنّما كانوا مظهرَ الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبَسون الثياب المرقّعة ،[٣] ويتخذون فى أرجلهم نعالا من ليف ،[٤] ويمشون فى الأسواق كبعض الرعية رجالا[٥] وكان لباس أبى بكر الشَّمْلَةَ والعَباءة ، ولباسُ عمر جبةَ الصوف مرقّعة بالأديم ، ومَرْكَبُه الأبلَ ،[٦] وكان علىّ عليه السلام يتجافى عن جمع المال ، ويقول ياصفراء ويابيضاء غُرّى غيرى ،[٧] وكان مَطْعَمُهم على مثل هذا الوجه من الكَفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الأطعمة ، حتى إنّ المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الحنطة

---

(١) الأغانى ٣ : ٨٦ والمسعودى ٢ : ٣٥٧ (٢) وكانوا يقولون فى خطبهم للمسلمين أطيعونا ما أطعنا الله فيكم فاذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم (٣) الطبقات ١ : ١٩ والمقدمة ١٨٥ (٤) الفخرى ٣٣ (٥) الفخرى ٨٩
(٦) المسعودى ١ . ٣٢٠ (٧) الطرطوشى ١٢٤

بنُخالتها ، ولا يعرفون من الألوان إلاّ اللحمَ يطبُخونه بالمِلْح والماء ، (١) وكان أبو موسى الأَشعرىُّ يتجافَى عن أكل الطير والدَّجاج ، (٢) وكذلك كان العرب فى سذاجة دولتهم على بُعْدٍ من ترَف المتمصرين فى جميع معايشهم وأحوالهم ، حتى إنه لم يكن عندهم من الغِناء إلاّ حُداء الركبان أو ضَرْبٌ من النَصْب أرقُ منه ، فلما ساد فيهم العمران فى عهد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ، ثم فُتِقَت الفتن فى دولة العباسيين ، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك ، فلم يتهيأ لهم مجلس بِدُورِهم إلى هذا الزمان .

وَلوع المهدىّ بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذاكرلك عن المهدىّ أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهّة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيباتِ فى هذه الأبهة والتأنقَ فى فنون المعيشة الى الغايةَ التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فاذا جلس إلى النُّدَماء أحبَّ أن يتمتع نفسه بلذة أحاديثهم (٣) وإشارتهم دون ستارة تحجُبهم عن نظره ، وإذا خرج إلى الصيد ركِب فى المواكب العظيمة المُزَيَّنة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء إليه .

وأنا لا أعُدُّ الصيد من الملاهى التى تعاب على الملوك إلاّ متى أفرطوا فيه وكانوا أقربَ به إلى الأَشَر منهم إلى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجْلَوْا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعَهم فى طلب

---

(١) الابشيهى ١ : ١١٤ (٢) المقدمة ١٧٨ وفى البخارى وشرحه للقسطلانى ما يخالف هذا (٣) السيوطى

الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون فى المهدىّ (أصلحه الله) وإنما هو كان به[1] من غير إفراط فيه . لأنى رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه فى اتخاذ العُدّة له ، إلى أن يصنعوا نِصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم فى كلام الشعراء .

ومن جوده يرمى العُداة بأسهمٍ من الذهب الإبريز صِيغَ نِصالها
لينفقها المجروحُ عند انقطاعه ويشترىَ الأكفان منها قتيلها[2]

وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من مزاولة القَنَص ، وإنما عُنِى باتخاذ الصقور والبِيزان وتربية الكلاب التى تسبق الظَّليم فى عَدوها ، يُلبسها أطواقاً من ذهب ،[3] ويُوَكِّل بكل كلب عبداً يخدُمه ، كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة[4] فى تربيتها للتحريض على الصيد ، إذ كان لا ينهَى الشرعُ عن اتخاذها الا فيما كان لغير الصيد والحِراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يَسْبِق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كِندة ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحِبالة فانقضّ بازٍ وحمل عصفوراً وعلِق واياه فى الحبالة ، فأخذه الملك وأتى به وهو يأكل العصفور ، ورماه فى كِسْر البيت فرآه قد دَجَن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاماً أكله ، وإذا رأى طيراً طار إليه ، فاتخذه فى عُدَّة الصيد وطلب به الطير ، وصار العرب يُؤدبونه[5] لذلك ، ثم يؤدبون العِقبان أيضاً ، ويقولون إنها تعمل عملا لا يدركه أكثر الصقور[6]

---

(١) ذكر حب المهدى للصيد فى الأغانى ٣ : ١٥٠ وابن الاثير والاتليدى وابن عون (٢) الاتليدى (٣) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الأطواق من الذهب (٤) الأغانى ٦ : ٧١ (٥) المسعودى ١ : ٩١ والأغانى ٧ : ٤٥ (٦) الدميرى ٢ : ١٥٢

وقد ركِب المهدى يوماً إلى الصيد وكنت فى خدمته مع الأمير علىّ ابن سليمان ابن عم أبيه وأبى دُلامة الشاعر، وكان خروجه من القصر فى آخر الليل، وفى طَرَف الأفق بَشَقٌ من الفجر، وكان يحوطه فُرسانٌ من الحرس متنكبون قِسِيَّهم، متقلدون سيوفَهم، يتبعهم قطعة من الجنود، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤنة على الخزائن[1] الخفيفة، وبينهم عدد من الوُصفاء فى أخف كُسْوة وأجمل لباس، وكان مسيره محاذياً للنهر ارتياداً للخضرة التى تجنح إليها الطيور وتسرح فيها المَهَى والغِزلان، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئاً من الطير تقدم إلى مَن بين يديه من الفُرسان أن يضربوا حَلْقة فى أرض مطمئنة مُمْرعة، ثم يُضيِّقوها رويداً رويداً إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة،[2] فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع فى حَلْقتهم غزال قد نَفَر ومرَّ، وكان الخليفة قد نشِط للصيد وخفَّ له فى ذلك اليوم، فمال هو وابن عمه إليه ورشقاه بالسهام فأصابه سهم فى صدره، وأصاب السهم الآخر بعضَ الكلاب فصرعه، فلما جلسا للاستراحة حمِل إليهما هذا الغزال، فوُجِد فى صدره سهمُ الخليفة، فارتجل أبو دُلامة وهو يريد المِزاح[3].

قد رمَى المهدىُّ ظبيا ... شكَّ بالسهم فؤادَه
وعلىُّ بنُ سليما ... نَ رمَى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كلُّ امـ ... ـرئٍ يأكل زاده

وقد اتفق للمهدىّ فى ذلك اليوم نادرة لم أرَ أظرفَ منها فيما يتفق

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٠ (٢) الفخرى ٦٥ (٣) الأغانى ٦ : ٤٧ والشريشى ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥ .

للملوك من النوادر ، وهى[1] أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذٌ من أصحابه ، فركض فرسَه مِلْءَ فُروجه حتى لا يُلَبِّدَه المطر ، فانتهى إلى بيت أعرابىّ مُلاَحٍ[2] فبادر إلى نزع ما ابتلّ من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ، ثم قال يا أخا العرب هل من قِرًى ؟ قال عندى فضلة فى رَكْوة فقال له هات اسقنى ، فشرب قَعْباً وسقاه ، فلما شرِب قال له يا أخا العرب أتدرى من أنا ؟ قال لا والله قال أنا من خَدَم أمير المؤمنين الخاصة ، قال له بارك الله فى موضعك ، ثم شرِب قدحاً وسقاه فلما شرِب قال له يا أعرابىّ أتدرى من أنا ؟ قال زعمتَ أنك من خدم أمير المؤمنين ، قال لا بل أنا من قُوّاد أمير المؤمنين ، قال رحبَتْ بلادُك وطاب مَرادك ، ثم شرِب قدحاً وسقاه فلما شرِب قال له يا أعرابىّ أتدرى من أنا ؟ قال نعم ذكرتَ أنك من قُواد أمير المؤمنين ، قال فلست كذلك قال فمن أنت ؟ قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابى الرَّكْوة وأوكأها ، فقال له الخليفة مالك يا شيخ ؟ فقال مكانَك . والله ما آمن أن أسقيك القَدَح الرابع فتزعمَ أنك رسول لله . فضحك المهدىّ حتى استلقى وأقبل الجند عليه . ونزل الأشراف إليه . فطار قلب الأعرابى من الخوف ، فقال له المهدى لا بأسَ عليك ولا خوف ، ثم أمر له بمال وكُسْوة . ولم يلبث أن رَجَع إلى الحضرة بعد انكماشٍ ناله من العَدْو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

---

(١) المسعودى ٢ : ١٩ وابن الاثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف ٢ : ٣٠٦ والشريشى ٢ : ٢٥٧ والاتليدى ٨٦ (٢) الأغانى ٣ : ١٥٠

فى تتمة أخبار المهدىّ ورسالتى الى خراسان

نعود إلى ذكر المهدىّ فى دولته وسياسته ، فانه لما حقق البغية بما أراده من البيعة لأولاده بَقِىَ عليه أن ينظر فى أمر العلوية ، وقد بقى منهم فى السجون جماعة لم يُطلقهم منها فيمن أطلقه عند ما وَلِىَ الخلافة ، [1] بل أبقاهم مع الذين عندهم تَبِعاتٌ من دم أو مال ، وهذا من شر ما يلاقيه أهل البيت من الذين خَلَفوا جدهم عليه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمَّد مَضَرَّتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يُطلعونه على أمورهم فيما يُسرون ويُعلنون ، وفيهم رجل من بنى سُلَيْم يقال له يعقوب بن داود ، طوّقه أمرَ الوزارة ومكّنه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ، ويُعلمه بمكان الحسنِ بنِ إبراهيم بنِ عبد الله بعد خروجه من السِّرداب الذى حفره إلى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكنَّ يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المالُ بغرضه غرضاً آخر ، فَبَقِىَ ميلُه مع أهل البيت ، والمهدىُّ وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك [2] .

ولما استوثق للمهدىّ أمرُ العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركِب إلى الحج فى كثير من عظماء دولته ، واتخذ من الأُبهة ما لم يسبق له مثيل فى الاسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدَّمَ ذكرُه وجماعةً من أقاربه المقربين ، واستخلف فى الحضرة موسى ابنَه ويزيد بن منصور الحِميرىَّ خالَه ، وحمل معه خمسين ألفَ ألفِ درهم ومائةً

---

(١) فى ابن الاثير ٦ : ١٥ والأغانى ٣ : ٣٩ انه عند ما ولى الخلافة أطلق المسجونين (٢) ابن الاثير ٦ : ١٤

وخمسين ألفَ ثوب[١] يُفرِّقها فى أهل الحرمين ، وكان عازماً فى تلك الحَجَّة أن ينكب الإمامَ الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد على عليه السلام ، وقد علم أنه فى جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان[٢] الذى كان مقبوضاً عنه وعن آل بيته فى خلافة أبى جعفر .

ولما قدِم إلى مكة نزع كُسْوة الكعبة وطلَى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كُسْوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تنهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذى كساها إياه هشامُ بنُ عبد الملك ، ثم أمر بانشاء أرْوِقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرُّخام من البحر ،[٣] وأتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالةَ أهل الحرمين مع ما أولاهم من الاحسان ، واتخذ لهم مآدب أفرغ الوسع فى زخرفتها وتنميقها للدلالة على عِظَم ملكه ، حتى إنه سقاهم الماءَ المبرَّد بالثلج المحمولَ من الشام ،[٤] (وكان الذى حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمىّ الذى تقدم فى الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الأمور التى تُوسع أهل البادية تعجباً من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه رد عليهم الوظائف التى قُبِضَت عنهم فى خلافة أبيه ، وفرَّق عليهم غيرَ ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار حُمِلت اليه من مصر ، ومائتى ألفِ دينار من اليمن ، وغيرَ ذلك مما جاءه من الجهات ، فبلغ المُنْفَقُ فى هذا الحج على كُسْوة الكعبة وصِلَةِ الناس و بناء القصور بطريق مكة واتخاذِ المصانع فى كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفْر الركايا وغيرِ ذلك نحواً من ستة آلافِ ألفِ دينار ، واصطفى لنفسه من الأنْصَار

(١) الخميس ٢ : ٣٣٠ (٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ (٣) الخميس ٢ : ٣٠

خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق ، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالى على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتَهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رُخص وخِصب بعد جَهد أصاب الناس في العام لمّا دهمهم الوباء[١] الجارف ، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدىّ ابنُ عم رسُول الله صلى الله عليه وسَلم وسميُّه[٢]

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تَجْواله في البلاد اختلالا لم يأمن مَعه على الدولة من الفساد صرف الهمة في النظر إلى تدبير الولايات ورتّب أناساً يؤدون رسائله إلى العمال ويترقبون لهم في إنفاذها وسماهم الأمناء،[٣] ووجّههم في جميع الأمصار فكان لا يُنْفِذُ كتاباً إلى عامل في أمر خطير حتى يكتُبَ يعقوب الوزير إلى بعض الأمناء بانفاذ ذلك . ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزِمَّة[٤] وأقام على الشُّرْطة من تَبيَّن فيه حسنَ النظر والتدبير، فاستوثق له الملكُ من الوجه الذي يرومه في استمالة الناس إليه .

إلا أنه تواترت عليه في منتصف هذه السنة ، والدهرُ له صافٍ ، رسائلُ من أبي عَوْن عاملِه على خُرسَان يشكو فيها ضعفَ جندها واعتلال دولته وتغلّب رجل أعور من مَرْوٍ قد ادّعى الربوبيةَ وأغوى الخالق ، وقامت له في الصغَّد وبُخارَى أنصار قد عاثوا في البلاد ، واتخذوا البياض شعارَهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهدىّ أمرَهم وأخرج إليهم مُعاذ بنَ مسلم موعزا إليه بأن يلتئم مع الحرشى الذي هو أمير الجيش في خُراسان ، حتى اذا كان

---

(١) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠ (٢) الأغانى ٣ : ٩٤

(٣) ابن الأثير ٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر أن المنصور كان يحب أن يوجد في دولته مثل ذلك ٦ : ١٠ (٤) ابن الأثير ٦ : ٢١

على انتظار البشائر منه وصله من أبي عون أنْ قد وقع الخلاف بين الجيشين، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويُصلح بين الأمويين، فوقع الخلاف بين يعقوبَ وأبي عبد الله فيمن يُطَوِّقانه أمرَ هذه الرسالة، فرام يعقوب أن يقلدنيها، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها الى أمير من آل قَحْطَبة وكان الربيع حاجبُ أبي جعفر راغباً في توجيهي بها أيضاً حبّا لي، ولكنه وقعت نفرة[1] بينه وبين أبي عبد الله فاشتغل في معاكسته وبلوغ المكروه منه.

ثم إنّ المهديّ وقع رأيه على أن يبعثني إلى مرو لأنظر في أمر هذا المقنَّع الأعور، وجعل لي التصرف فيما أرى حلّه وعقده من خلاف القوّاد، إذ يكون خير الجيش المرجوّ مالم تتقلب بامرائه الأغراض، ولا سيّما أنّ له في خُراسان عدوّين يتفقان جميعاً عليه. جماعةُ خارجيّ يقال له يوسف البرم[2] وشيعةُ هذا المقنَّع الذين يدعون ألوهيته ويقيمون دعوته على بذل الدماء. فأما جماعةُ البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلاّ في أمر من السياسة، ولذلك كانوا أقلَّ على الدولة خطراً من رجال المقنَّع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أنّ الله تعالى خلق آدم فتحوّل في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الأنبياء حتى تحول في صورة هذا المقنَّع بعد أبي مسلم رحمه الله. وقد نَقَلَتِ الأخبارُ السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أرام في السماء قمراً آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال وغلبة الرجال.

وإنما زعم هذا المقنَّع أن الله تعالى تحوَّل قبله في صورة أبي مسلم

(١) الفخري ٢١٦ وابن الاثير ٦ : ١٩ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦

ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعيةُ الامامية رحمه الله وان كان حيداً عن اظهار دعوة أهلِ البيت . فكان استخدامُه الدينَ لنيل مناه وجهاً من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام اليه ، وقد رأى أنّ عصر موسى عليه السلام كان مقدَّماً بالسحر فغلَب السحرةَ ، وعصرَ عيسى عليه السلام مقدَّماً بالطب فغلَبَ الأطباْءَ ، وعصرَ النبى صلى الله عليه وسلم مقدَّماً بالبلاغة ففضُل البلغاء ، فرأى أن عُصرَه مقدَّم بالكيمياء فأراد أن يبهرَ الناس بما يستنبطه من المركَّبات ،

وقد فرغت من تقيد هذه الرسالة فى ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرَّفة وأنا على أُهْبَةِ السفر الى خُراسان وساصْدِرِ لك منها كتاباً أودِعه ذِكرَ الشيعة فيها وأخبار أممها من الفُرس والديلم وغيرهم . وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوَكيل

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدى والهادى

ولما[١] وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأَقرَأَ عليهم سلامَ الفضل[٢] أعزّه الله وأُطفئَ ما بنفسى من الشوق إلى الأنس بقربهم

---

(١) الرسالة المكتوبة فى خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه (٢) كان فى ذاك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور فى ابن الأثير